

فصول من حياة الحكم أمير الأندلس

(١)

مؤامرة الفقهاء — وقعة الحفرة

بعد وفاة أمير الأندلس العظيم عبد الرحمن الداخل — صقر قریش — خلفه على الأمانة ابنه الأمير هشام ، وكان هشام رجلاً رضى الأخلاق ، كامل المروءة ، عميق العاطفة الدينية . وقد زاده إقبالاً على الدين وميلاً إلى الزهد تلك النبوءة الغريبة التي سمعها من أحد منجمي عصره ، وذلك أنه عند ما ولى أشخص المنجم المعروف بالاضبي من وطنه — الجزيرة الخضراء — إلى قرطبة ، وكان بارعاً في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية ، فلما أتاه خلا به وقال له : « يا ضبي ، لست أشك أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم تدع تحديد النظر فيه ، فأنشدك الله إلا ما نبأنا بما ظهر لك فيه » !

فاضطرب المنجم ووجلج ، واعتذر قائلاً : « اعفنى أيها الأمير ، فإنى ألمت به ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى »

فقال له هشام « قد أجلتك لذلك ، فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه » و بعد أيام أحضره وقال له : « إن الذى سألتك عنه جد منى ، مع أنى والله ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله الذى استأثر به ، ولكنى

أحب أن أسمع ما عندك فيه ، فالنفس طُلعةٌ « وألزمه الصلة أو العقوبة .

فلم يجد الضبي مناصاً من أن يفضى إلى الأمير بما كشفت له الطوابع ،
فتشجع وقال « اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك ، سعيداً جدك ،
قاهراً لمن عاداك ، إلا أن مدتك فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام
أو نحوها »

فأطرق هشام ساعة ، ثم رفع رأسه وقال « يا ضبي ما أخوفنى أن يكون
النذير كلمنى بلسانك ، والله لو أن هذه المدة كانت فى سجدة لله تعالى لقلت
طاعة له » ووصله وخلع عليه .

أثرت نبوءة الضبي فى نفس هشام المطبوعة على التدين ، فأعرض عن
لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه واستنقاذ روحه ،
فكان يلبس أبسط الثياب ، ويطوف بقاعدة ملكه ، ويمتزج بالناس ،
ويحاول أن يتعرف حاجاتهم ، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ،
ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة
المطر ومعه صرر الدراهم يتحرقى بها المساكين وذوى البيوتات من الضعفاء ،
وكان يصر الصرر بالأموال ويبعث بها فى سواد الليل والمطر يتساقط
والرياح تتناوح إلى المساجد ، فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة
المساجد . وهكذا ذهب بسيرته مذهباً قوى الشبه بمذهب الخليفة الصالح
عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُور فيسألون عن

سير العمال ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

وقد شئت الأقدار القاسية أن يتورط هذا الأمير التقى الورع في الخطأ الذى طالما استهدف له البررة الصالحون من الأمراء ، وهو تمكين رجال الدين من أن يزجوا بأنفسهم في تصريف شؤون الدنيا ، وتدير سياسة الدولة ، وهى أمور لم يهيئوا لها بحكم ملكاتهم الأصلية ونشأتهم الفكرية التأملية ، وقد كان أبوه الداخل شديد الغيرة على سلطته ، فلم يسمح لرجال الدين بأن يصلوا إلى مكانة تمكنهم من اعتراض سبيله والمساهمة في تديرته . ولكن هشام لم ترقه هذه السياسة ولم يفكر في عواقب الانحراف عنها ، وكان يحب أن يضع ثقته في هؤلاء الرجال الطاهرين أعلام الهداية ، وأقطاب الفقه ، ولم يستطع — لاستغراقه في الورع وإمعانه في الصلاح — أن يلح في نفوسهم موقع حب السيطرة وممكن المطامع . ولم يقصر رجال الدين في انتهاز هذه الفرصة الذهبية الثمينة التى لاحت لهم ، فوطدوا مكائهم ، وحصنوا مواقعهم ، وبسطوا نفوذهم ، وبلغوا في ذلك شأواً بعيداً .

وفي هذه الفترة ظهر في الشرق مذهب حديث من مذاهب الفقه الإسلامى ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وكان هشام يضمّر الاحترام العظيم لهذا الإمام الكبير . ولم يكن مالك محبوباً من العباسيين لأنه كان متهماً عندهم بالميل إلى العلويين . وكان مالك يميل إلى هذا الأمير المناوىء

للعباسيين ، ولما أثنى بعض تلامذة مالك على هشام اشتد إعجابه به وأكثر من الثناء عليه ، ولما وصفه له زياد بن عبد الرحمن قال مالك : « نسال الله أن يزينا موسمنا بمثل هذا » . وكان تلامذة مالك من الأندلسيين يبلغون هشاماً ثناء مالك عليه فيعجبه ذلك ويسره ، وكان من بواعث تأييده لمذهب مالك ونشره في ربوع الأندلس .

ولما مات هشام سنة ٧٩٦ ميلادية (١٨٠ هجرية) كان مذهب مالك غالباً على الأندلس ، وكان بين أنصاره البارزين طائفة من الشبان الأقوياء ذوى الطموح ، بينهم أبو محمد بن يحيى بن يحيى بن كثير ، وأصله من البربر من مسمودة ، وقد رحل إلى المشرق فسمع الموطأ من الإمام مالك وقال عنه مالك : « هذا عاقل الأندلس » وكان يحيى شخصية قوية امتزج فيها الطموح السياسى بالحماسة الدينية .

وخلف هشاماً ابنه الحكم ، وكان فتي غرض الإهاب مشبوب الأحاسيس لا يتجاوز عمره السادسة والعشرين ، وكان على ما يظهر قد عقد العزم على النهوض بتكاليف الإمارة والانفراد بتبعاتها ، لاعتقاده أن تصريف شؤون الدولة وتقرير اتجاهاتها حق من حقوقه التى لا يصح أن ينازعه فيها منازع .

ولم يكن الحكم ماجناً خليعاً خارجاً على الدين مستخفاً برجاله ، بل كان على نقيض ذلك يميل إلى رجال الدين ، ويجد متعة فى أحاديثهم ، ويحترم القضاة ويدعن لأحكامهم ، وإنما كان رجلاً مكتمل الرجولة ، محباً للحياة

حريصاً على الاستمتاع بها ، لا يجد داعياً للزهد في متعها المباحة والتخلي عن نعيمها المشروع ، وقد كرهه رجال الدين لأنه لم يسلس لهم قياده ، ولم يفتح لهم صدره وأذنه ويشركهم في أمره ، على أن الحكم — كأكثر خلق الله — لم يكن معصوماً من العيوب ولا خالياً من المساوىء ، وربما كان فيه بعض العيوب الخطيرة التي تنتقص الرجال وتعييب الحاكمين ، ولكن رجال الدين لم يكونوا في موقف يسمح لهم بأن يوازنوا موازنة هادئة نزيهة بين حسناته وسيئاته ، فقد فجّعهم في أحب شيء إلى الإنسان وهو «حب القوة» . ولذلك اختلت موازين هؤلاء القوم الصالحين ، وصاروا في حالة نفسية تجعلهم يعتقدون أن في ترويج المبالغات عن سوء سيرته ، وتلفيق الأراجيف حول أعماله ، تأييداً للفضيلة المهدرة المضيعة وحرصاً على الدين المستباح الحمى المهمل الجانب ، ومن المرجح إلى حد كبير أنهم كانوا على استعداد — ربما كان تاماً — للإغضاء عن عيوبه ، وإسدال الحجب دون سيئاته لو أنه منحهم السلطة وحباهم النفوذ .

ولما خاب أمل رجال الدين في استمالته واجتذابه إلى صفوفهم لم يجدوا بأساً في أن يتحولوا إلى قادة شعبيين يحمسون الشعب ، ويشيرون سخطه على الحكم ، ويستغلون سذاجة العامة ويتخذونهم وسيلة لأغراضهم ، وقد وجدوا في تقبيح سيرته ، وتشويه صورته ، مادة خصبة للمواعظ الحارة ، والأدعية المبتكرة ، واعتصروا شاعريتهم في نظم أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع . وخلطوا بذلك شيئاً من التعريض به مثل أن

يقولوا « يا أيها السرف المتماذى فى طغىانه ، المصر على كبره المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك » وما نحا هذا النحو .

وكان فى قرطبة جماعة كبرى من « المولدين » وهم من الذين دخلوا فى دين الإسلام بعد الفتح ، وكان أكثرهم فى الأصل من طبقة العبيد ، وكان هؤلاء القوم أقوياء ناشطين ، وكانوا متبرمين بحالتهم متذمرين من معاملة العرب لهم ، متحفرين للثورة للتنفيس عن كربهم ، ولذا استجابوا لتجريض المحرضين ، ووجد الفقهاء فى نفوسهم مرتعاً خصباً ، فأصبحوا طوع بنائهم وطوع إشارتهم . وفى ذات يوم تطاولوا على الأمير وقذفوه بالأحجار وهو يسير فى شوارع قرطبة ، واضطر هو ورجاله إلى أن يشقوا طريقهم بأطراف السيوف ، وأخذت الثورة .

وحاول رجال الدين بعد ذلك خلعه والخلاص منه ، فتأمر يحيى وعيسى ابن دينار وغيرها من أعلام الفقهاء مع جماعة من الأشراف ، وعرضوا الإمارة على ابن عم له يعرف ^(١) بابن الشماس من ولد منذر بن عبد الرحمن ، وخاضوا معه فى ذلك ، فأظهر لهم الإجابة وقال لهم : « عرفونى بمن معكم فى هذا الأمر » فواعدوه ليوم بعينه ، ثم قصد بنفسه إلى الحكم وأعلمه بذلك ، فشك الحكم فى قوله ، واستكثر أن يقف العلماء منه هذا الموقف فقال له وقد أخذ منه الغضب : « أردت أن تغرينى بأعلام بلدى ، والله

(١) فى ابن عذارى أن اسم ابن عمه هذا محمد بن القاسم وكذلك فى ابن خلدون وقد أخذت برواية ابن القوطية لأنه أقدم عهداً منهما وأكثر استيفاء لتفصيلات هذه المؤامرة .

لتصحح هذا عندي أو لأضرب رقبته » فقال له ابن شماس : « إبعث إلى أمينك ليلة كذا » ، فبعث إليه فتاة « برزت » وكتبه ابن الحذا ، فأقعدها بمكان وراء ستار بحيث يسمعان ما يدور بينه وبينهم ، فأتوه وأداروا الأمر ، فقال لهم : « من معكم في هذا الأمر ؟ » فأخذوا في ذكر طائفة كبيرة من الأسماء ، واتسعت القائمة وشملت أسماء كثيرة ، وخشى ابن الحذا أن يذكر اسمه ضمنهم ، فصوت بالقلم في الرق فثار القوم وقالوا لابن شماس : « فعلتها يا عدو الله ! » ولأذ كثير منهم بالفرار بينهم عيسى بن دينار فقيه الأندلس ويحيى بن يحيى ، وقبض على نحو اثنين وسبعين من الباقين بينهم ستة من كبار الفقهاء وصلبوا جميعاً .

وثار أهل الرض بقرطبة في السنة التالية وشهروا السلاح ودارت الحرب بينهم وبين الجند ، وكان ذلك في أثناء غياب الحكم بالمريدة ، فعاد مسرعاً وأخذ الثورة ، وأطار رؤوس أشد الثائرين خطراً .

على أن هذا القتل لم يكن كافياً لإرهابهم وإرغامهم على الطاعة ، وقد حدثت بعد ذلك وقعة الحفرة في طليطلة فأظهرت لهم أن الحكم من هؤلاء الأمراء الجبابرة الذين لا يحجمون عن الغدر والخيانة والولوغ في الدماء إذا كان ذلك لازماً لتثبيت قواعد ملكهم وتخضيد شوكة أعدائهم ، وقد كان الحكم ميالاً إلى الصفح وسياسة الأمور في رفق واعتدال ، ولكن حب التمرد والعصيان الذي كان مستحكماً في نفوس رعيته جعله ميالاً إلى الشدة وسفك الدماء .

وقد كان لمدينة طليطلة عاصمة القوط السابقة شأن خاص لشهرتها

القديمة ، وكان الإسبان يرونها من الناحية السياسية والناحية الدينية
أكبر مدن أسبانيا شأناً ؛ وكان أهلها معروفين بالإقدام وشدة الطموح
والميل إلى الحرية ، وكانت طاعتهم ملتائة ، وكان بها غريب الشاعر ،
وكان يثير حميتهم بشعره ويرد عنهم الكيد بدهائه . ولم يحاول الحكم
استرداد طليطلة وإرغامها على الطاعة في حياة غريب ، لاعتقاده أن ذلك
سيكلفه مجهوداً شاقاً ، فلما مات غريب استدعى الحكم عمروس من
مدينة وشقة — وكان من المولدين — وأفضى إليه بمقاصده وخططه
في الاستيلاء على طليطلة ، وقال له « إني لم يبق لي أمل في الانتصاف من
أهل طليطلة إلا على يدك » وكان عمروس من ذوى المطامع الذين
لا يقيمون وزناً للدوافع الأخلاقية ، فوافقه على ذلك وولاه طليطلة ، وكتب
إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم ويقول « إني اخترت لكم رجلاً من
أهلكم وأعفيتكم من موالينا » وحد لعمرس حدوداً رجا بها بلوغ أمله ،
فكان مما حد له أنه قال « إذا أنس أهل طليطلة إليك وأحلوك محل واحد
منهم بإظهارك لهم في الباطن أنهم أحب إليك من بنى أمية ، ومن كل من
عرفهم ، وأنتك على كراهة لجميعهم ، فعليك أن تقول لهم إني رأيت هذا
الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان إنما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيتكم
ونسائكم ، فأرى أن أبني قصبة في جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونوا
بمعزل عنكم وتسلموا من شرهم ، فأجابوا إلى أن تكون القصبة في وسط
المدينة ، فبنى قصرأ واستخرج ترابه من حفرة في وسطه ، فلما تم القصر

ورحل إليه وسكنه أعلم الحكم بذلك ، فعهد الحكم إلى بعض قواده في الثغر بأن يخاطب بحركة العدو ويطلب النجدة . فلما عمل برأيه استنفر الحكم الناس بقرطبة وغيرها وأخرج ابنه عبد الرحمن ، وهو حينئذ ابن أربع عشرة سنة وأخرج معه ثلاثة من الوزراء ، وكتب الحكم كتابا وأوصى حامله أن يدفعه إلى الوزراء عند اجتماعهم بعمرس ، فلما صار العسكر على مقربة من طليطلة تلقاهم الخبر بانصراف العدو ، فقال عمروس لأهل طليطلة إنه سيخرج للحفاوة بالأمير الصغير ، وأشار عليهم بالخروج معه ، فلبوا طلبه ، وأحسن الأمير لقاءهم وبسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا إليه ، ثم خلا عمروس بالوزراء ، وجاء حامل الكتاب فدفعه إليهم ، فإذا فيه أن يشير عمروس على أهل طليطلة بدعوة ولي العهد إلى مدينتهم ليكونوا من خواصه ، وأن يظهر الأمير التمتع والتردد في دخول طليطلة حتى يعزموا عليه فإذا عزموا انقاد لهم ودخل المدينة وأقام في القصر ، فسأله القوم ذلك فتغاضى ، ولكنهم ألحوا عليه والتمسوا منه زيارة المدينة ، فرحل إليها ودخلها وأقام في قصر الحاكم ، وكان له بابان ، ثم دعا وجوه أهل طليطلة إلى وليمة كبيرة فحضروا وأمروا بالدخول من باب ، وحرقت دوابهم إلى الباب الثاني ليخرجوا منه ، ولم يسمح لهم بالدخول جماعات ، بل كانوا يدخلون أفراداً ، ووقف السيافون على شفير الحفرة في داخل القصر ، فكان كل من دخل تضرب رقبتة ، واستمرت هذه المجزرة ساعات ، ومن الصعب معرفة عدد من قتلوا ، وأتى الباب الذي منه الدخول أحد سكان طليطلة فلم يلمح أحداً

خارجاً وقد تعالى النهار ، فقال لمن حول الباب : « أين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة ؟ » ف قيل له إنهم يخرجون من الباب الثانى فقال : « إني لم ألق أحداً منهم منقلباً » ثم رفع بصره فنظر إلى بخار الدم فقال : « يا أهل طليطلة السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخ » فكان قوله سبب افتراق الناس وبقاء من بقى منهم

فقدت المدينة فى تلك الوقعة قادة ثورتها ، وزهرة سكانها ، وذوى الثروة والنفوذ فيها ، فاستكانت للضربة القاضية ، واستقامت طاعة أهلها ، ولم يظهر بينهم من يرفع علم الثورة ، ويثار لدماء قتلى الحفرة .